الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي لميلة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي ميلة

معهد الآداب واللغات

ميدان اللغة والأدب العربي

800/84/01
01

عنوان المذكرة:

ظاهرة الألم في شعر أبي القاسم الشابي

مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس نظام جديد
تخصص الأدب العربي

إعداد الطالبات:
- بوصبيع خاليدة
- مغزيلي حنان
- لشهب عزيزة

إشراف الأستاذ:
بوفاس عبد الحميد

السنة الجامعية: 2010 - 2011

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
نيابة مديرية
معهد
الآداب و اللغات
المركز الجامعي ميلة

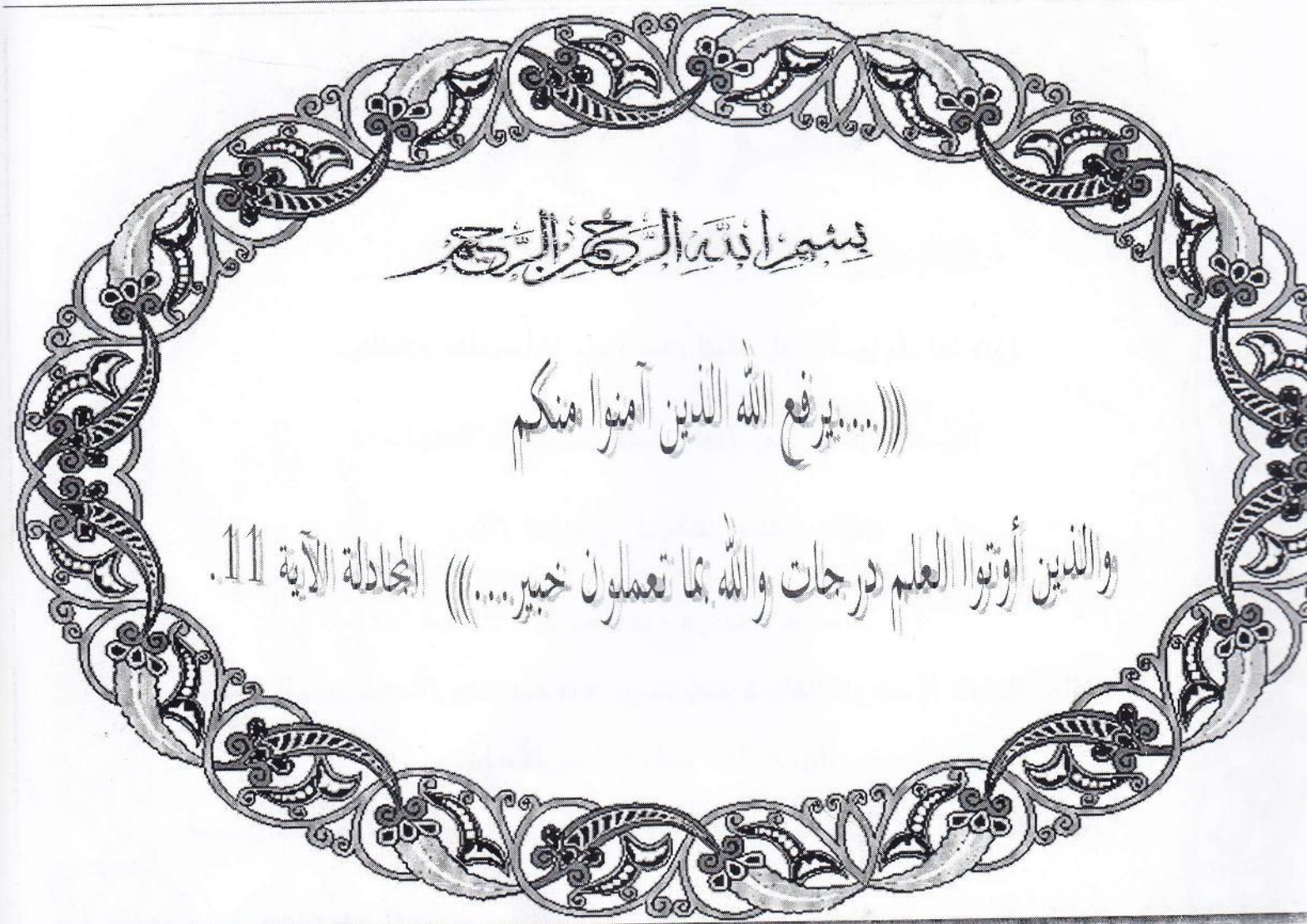

بسم الله الرحمن الرحيم

((....يرفع الله الذين آمنوا منكم

والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير....)) المجادلة الآية 11.

شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

إعترافا بأولي الفضل علينا بعد فضل الله سبحانه وتعالى....

إلى من أعاننا على إنجاز هذه المذكرة المتواضعة

نتقدم بخالص شكرنا وإمتناننا إلى :

الأستاذ المحترم : بوفاس عبد الحميد

إلى الهيئة الإدارية القائمة على تسيير وتوجيه قسم الأدب نحو الأحسن

إلى زملائنا الطلبة بقسم الآداب

إلى كل من أمد إلينا يد العون وساهم معنا وشجعنا وحفزنا في إنجاز هذا

البحث أو هذا العمل المتواضع نتقدم له بخالص تشكراتنا فجزاهم

الله عنا كل خير وأنارهم بنور العلم.

مقدمـــــــــة:

إن الحديث عن أبي القاسم الشابي هو حديث عن روح الكائن الإنساني في ترددها الموجع بين عوالم متناقضة الأبعاد فلا ينطق بغير عبقرية الشعر ولا يعترف بحدود المكان واللامكان، دأبه في الكتابة طفولة مستعادة.

لقد كان الشابي يجوب أصقاع اللغة يغترف منها بديع المعاني وغريبها ويسمرها في تنور المكابدة والمأساة فيصير شكلها تحديدا ولكينونتها إشعاعا وإيقاعا يتردد في الكون من حقبة زمنية لأخرى.

كما أن الحديث عن الشابي هو حديث عن روح معذبة في صعودها ونزولها الأزليين بين عالم المادة وعالم المثل، فالدراسة النفسية لأبي القاسم الشابي تجعل من جسده قيثارة شعره، فهدا الجسم المثقل بالمرض والممزق بفورة الشباب وبراثين العلل الأخرى هو الذي يصدر هده الأصوات الشعرية فتكون تارة رهيبة يصنعها الأنين وطورا صارخة دافعة للتجاوز في سماء الكونية الجسدية والكونية الشعورية.

لقد كانت موهبة الشاعر معجونة ومغموسة بالحزن والكآبة والغربة مع بصيص من الأمل، فالحزن والألم مادة أساسية ومحركة في شعره، وهدا ما تطلب منا الوقوف على هده السمة البارزة في شعره ومن هنا جاء **إشكال** هدا البحث ليطرح نفسه بقوة:

ما مكونات وما أسباب هده السمة- الحزن والألم- في شعر الشابي وكيف تعامل معها؟

وللإجابة على هذا الإشكال اخترنا بحثا في نتاج عربي لشاعر عربي مثل سمة التجديد

في الأدب العربي حيث كان هدا البحث موسوما بـــ:

ومن آفاق هدا البحث وفرضياته:

- بيان قيمة شعر أبي القاسم الشابي في جوانبه المضمونية والشكلية
- الكشف عن بعض الجوانب النفسية في شعر أبي القاسم الشابي.
- إمكانية إتخاذ التحليل النفسي كمنهج نقدي في الوقوف على خصائص شعر الشابي المتجددة.

أما **الهدف الرئيس** من هدا البحث هو الوقوف على ظاهرة الألم في شعر الشابي محاولين بيان أسبابه ومظاهرها، وكدا علاقتها بالمكونات اللغوية للنص الشعري.

ومن **الأسباب** التي كانت وراء اختيار هدا البحث أو هدا الموضوع:

- أهمية المادة المكونة للنص الشعري والمتمثلة في الحزن والألم وإمكانية إعطاء تفسير لبعض الخصائص الأسلوبية في شعر الشابي من خلال تلك المادة.
- التهميش الذي لقيه الشابي من خلال تنكر مجتمعه له بخلاف شعراء التجديد في بعض البلدان العربية أمثال مصر والشام والعراق بالرغم من أن شعر الشابي حافظ على تراثنا اللغوي أشد المحافظة وسبكه في قوالب جديدة من عقله الجديد وخلع عليه ظلالا من أشعة روحه.

ومن الكتب التي بها صلة وثيقة بهدا البحث:

- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، دار تلا نقيت للنشر
- أبو القاسم محمد كرو، الشابي حياته وشعره منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان.
- أبو القاسم الشابي: ديوانه الشعري تقديم وشرح أحمد حسن بسج منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية الطبعة الرابعة.

أما عن **المنهج** المتبع في هده الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي، آملين أن يجيب عن بعض الخصائص الفنية التي مازال ينبض بها شعر الشابي.

أما عن **المحاور الأساسية** التي ارتكز عليها هدا البحث فقد كانت اثنين: الفصول والخاتمة.

وقد اشتمل البحث على ثلاثة فصول.

حيث كان الفصل الأول معنونا:

" بين الألم والوجع" وتطرقنا فيه إلى مفهوم الألم بصفة عامة ومفهوم الوجع بالإضافة إلى أنواعه سواء كان الجسدي منه أو النفسي.

بينما **الفصل الثاني:** والمعنون بـــ: " ألم المرض وألم المجتمع" تطرقنا فيه إلى منبعين كانا السبب في بؤرة الألم لدى الشابي وهما: * ألم المرض وهو تبيان الأثر الذي خلفه المرض في نفسية الشاعر فجعله منطويا محبا للعزلة فكان الليل هو أنيسه وسميعه أثناء شكواه هده الأخيرة التي كانت ناتجة عن الحياة وتأثيرها في نفسه.

ألم المجتمع وهو تبيان الألم الذي كان يحز في داخله هدا بسبب مجتمعه الذي لا يقدر عمله ولا يتمنى فنه بالرغم مما قدمه الشاعر من مجهوذات وتجديدات في شعره.

أما الفصل الثالث فعنوانه: " ألم الإستعمار" تناولنا فيه دور المستعمر في إعطاء الشاعر الإلهام للكتابة أي الرغبة في التحرر والاستقلال وتحفيز أمته النائمة على النهوض من سبات الذل والهوان للوقوف في وجه الظالم المستبد وقد نظمت أشعار الشابي عدة مفاهيم منها الوطنية وأثرها في شعره.

أما الخاتمة فقد تم تدوين فيها أهم النتائج التي أمكن التوصل إليها من خلال هدا البحث المواضع.

وبناء على الوصف السابق فقد كانت الخطة المفصلة للبحث كما يلي:

- مقدمـــــــة
- الفصل الأول: بين الألم والوجع
  * تمهيـــــد
  1- تعريف الألم.
  2- مفهوم الوجع.
  3- أنواعـــــــه.
  3-1/ الوجع الجسدي
  3-2/ الوجع النفسي
الفصل الثاني: ألم المرض وألم المجتمع
أولا: ألم المرض
1- ترجمة الألم عند الشابي
1-1/ الحياة وتأثيرها في نفس الشاعر.
1-2/ شكوى الليل
ثانيا: ألم المجتمع
1- الإيقاع الأسطوري والإنفتاح عليه
1-1/ أشعار التحدي
1-2/ أشعار العزلة والإنطواء
2- الكتابة بالذات لدى الشاعر
3-مكانة التكرار في عمق التجربة الشعرية

- **الفصل الثالث : ألم الإستعمار**

1- أثر الوطنية في شعر أبي القاسم الشابي

2- ظلم المستعمر وصرخة الحياة.

- **خـــــاتمـــــــة**
- **قائمة المصادر والمراجع**
- **الفهـــــــــرس**

ومن الصعوبات والعراقيل التي واجهتنا خلال إنجاز هذا البحث فهي لم تكن كثيرة إلا نقص في بعض المصادر والمراجع المطلوبة وهذا لاعتبار المركز الجامعي حديث العهد فمن البديهي أن تكون المكتبة فقيرة للكتب، وما كان من هذه العراقيل فقد وفقنا بمعونة الله وكذلك للتعاون الكبير من طرف أستاذنا الموجه، الذي نوجه ونجدد شكرنا له الذي كان له الدور الفعال في إتمام بحثنا المتواضع.

وفي الأخير نأمل أن نكون قد وفقنا في عملنا.

والله ولي التوفيق.

الفصل الأول

بين الألـــم والوجـــع

* تمهيـــــد

1- تعريف الألـــم.

2- مفهوم الوجع.

3- أنواعـــــــه.

3-1/ الوجع الجسدي

3-2/ الوجع النفسي

تمهيـــــــد

من طبيعة الحياة والتطور الذائب والحركة المستمرة، والأدب بجميع ألوانه صورة من هذا التطور خاضع له، ينمو ويتجدد ليساير الحياة، ومن فنون الأدب الشعر الذي يتجاذبه الصراع القائم بين القديم والجديد، وأول ما يستدعي السامع إلى الشعر تلك الموسيقى المطردة التي تخضع لقواعد صوتية خاصة تجعل له شكلا فريدا يميزه عن النثر وقد كان الشعر لدى بعض الشعراء بمثابة وسائل من أجل التعبير عما يخالجهم من إحساسات وعواطف أو آلام وملذات ، سواء كانت هذه خاصة بهم بحدد، نقسم أوبغيرهم، إذ نجد العديد من التعاريف التي تناولها عثمان موافي ومن بينها ما قدمه بن جعفر والذي جاء في مضمون تعريفه بأن الشعر قول موزون مقفى " وفي هذا التعريف قصور شديد لأنه لم يتضمن أهم مقومات هذا الفن التعبيري كالعاطفة والخيال، ثم لأنه يسوس بين الشعر والعلم الذي يعد النقيض الحقيق لهذا الفن الأدبي"[1]

وقد تطور الشعر ويساير مراحل وأزمنة مختلفة لكي يكتسب طابعا مختلفا ألا وهو الشعر الحديث هذا الأخير الذي هو لون جديد ظاهر إلى الوجود في أواخر الأربعينات على لسان الشعراء الشباب في العراق مع بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وغيرها، ومن النقاد من يرد تاريخ ظهوره إلى أوائل الحرب العالمية الثانية.

وشاعت تسمية الشعر الحديث (بالشعر الحر) عند كثير من الأدباء المعاصرين، لكنها تسمية غير دقيقة، والأقرب إلى الصواب هو أحد التعريفين: الشعر الحديث أو شعر التفعيلة[2]

1- عثمان موافي في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي الحديث الجزء الثاني، (د،ط)، دار المعارف الجامعية كلية الآداب جامعة الإسكندرية2009، ص13.

2- م ن. ص13

كذلك نجد عثمان موافي قد درس بعض تعاريف الشعراء للشعر من بينهم نجد الرافعي الذي يعرف الشعر تعريفا يتفق وهذا الفهم الحقيقي بطبيعته الفنية، فهو علاوة على كونه كلاما منظوما فهو " فن النفس الكبيرة الحساسة الملهمة، حيث تناول الوجود من فوق وجوده في لطف روحان ظاهر في المعني واللغة و الآداء"[1]

وهنا نجد أن الرافعي قد جعل مفهوم الشعر موازيا لطبيعته الفنية أي أنه عبارة عن منظوم متعلق باللغة والأداء[2] وكذلك نجده يقول في موضع آخر متعلق بمفهوم الشعر " في أسرار الأشياء لا في الأشياء ذاتها ولهذا تمتاز قريحة الشاعر بقدرته على خلق الألوان النفسية التي تصبغ كل شيء وتلونه لإظهار حقائقه ودقائقه حتى يجري مجرى في النفس ويجوز مجازه فيها وكل شيء تحاوره الناس من أشياء هذه الدنيا فهو إنما يعطيه مادة بهيئته الصامتة حتى إذا إنتهى إلى الشاعر أعطاه هذه المادة في صورته المتكلمة فأبانت عن نفسها في شعره الجميل بخصائصه ودقائق لم يكن يراها الناس أنها ليست فيها"[3]

وهنا المتطلع إلى هذا القول يجد أن الرافعي قد اعتبر مفهوم الشعر على أنه مفهوم يكشف أشياء مخفية في نفسية الإنسان ويصورها على أنها صورة متكلمة تدل على نفسها في صورة شعر جميل[4]

1- عثمان موافي في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي الحديث الجزء الثاني، ص13.

2- عثمان موافي في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي الحديث، ص13.

3- م ن. ص19-20

4- م ن . ص 19-20

" وقد اطلع أدباء العرب بالحديث على مذاهب مختلفة وهذه المذاهب ليست بالمظهر الجديد في الأدب لذلك فإن الدارس أو الباحث المستقصي للأدب ومذاهبه لا يفوته استبيان ملامحها وروحها مما هو مأثور من أدب الأولين.

وما يمكن تسليط الضوء عليه أن المذاهب الأدبية لا تستمد نشأها وإستقرارها من إختلاف الرأي حولها ومن بين هذه المذاهب نجد المذهب الرومانسي، هذا الأخير الذي هو مشتق من كلمة رومانيوس وقد أطلقت هذه الكلمة على اللغات اللاتينية لغة روما القديمة" [1] " ثم تحولت هذه اللهجات إلى لغات مستقلة فصيحة إنفصلت عن اللغة لغات ثقافة وأدب وعلم"[1]

" وقد تخللت الرومانسية عدت مظاهر كان لها الأثر الواضح في سيرها مثل الألم والكآبة هذه الأخيرة التي تعد عند أبي القاسم الشابي بعدا فلسفيا، وصوتا باحثا عن الحقيقة لأن الشعر كان عنده وسيلة للتنفيس ومنطلقا للإستجابة وتعبيرا عن أحلامه التي أورثته الكآبة"[1]

1- الكآبة في المذهب الرومانسي ص 1 http://aljazairi.ahlamontada.net

" ومن خلال هذا نجد مفهوم الكآبة الذي يتجلى لنا في:

" **كأب، الكآبة** : سوء الحال والإنكسار من الحزن، كما ورد أيضا كئيب يكأب كأبا وكآبة مثل تنشأة ونشأة و نشاءة و رءفة ورأفة واكتئاب، كما نجد لفظة اكتئاب التي تعني حزن واغتنم وانكسر فهو كئيب وفي الحديث النبوي الشريف "أعوذ بك من كآبة المنقلب" كما نجد الكآبة وردت في موضح آخر، تغيير النفس بالإنكسار من شدة الهم والحزن وهو كئيب ومكتئب مثل أن يكون شخص ما على سفر فعند عودته إلى أهله يجدهم مرضى أفقد بعضهم" [1]

إذن: فالكآبة هي الحزن الشديد ومن خلال هذا نتطرق إلى الكآبة في المذهب الرومانسي " فقد كانت الرومانسية في نشأتها حركة تشاؤمية تزحم بمظاهر الشؤم والعمق في الوجود وتركز إلى الهرب من الواقع إلى عالم الأحلام والخيال والذكريات والطفولة"[2]

" كانت الرومانسية منذ بدايتها الأولى تعبر عن التشاؤم والغوص في أعماق الذات والسفر في الحلم والخيال، وثورة على قيود المجتمعات الجائرة وعلى كل ما يحد من حرية القلب البشري لأدبائها والتلذذ بالأحلام والذكريات والارتماء في أحضان الطبيعة حيث الحرية والفرح للقاء الحبيب والتأمل في مفاتن الكون المهيب والتغن بعظمة الخالق الذي أبدعه"[3]

" فالواضح للعيان أن شعر الشابي قاموس متكامل عن الكآبة ولديه الكثير من المفردات الشائعة التي تستخدم في سياق الكآبة والحزن فقلما نجد قصيدة لا تمر فيها تلك المفردات مما يدل على أن الشابي شاعر ملتزم بمبادئ الرومانسية ومنبع لآثارها بشكل دقيق"[4] .

1- الكآبة في المذهب الرومانسي ص 1 http://aljazairi.ahlamontada.net

2- م ن. ص 1

3- م ن. ص 1

4- م ن. ص 1

فإذا نظرنا إلى فهرس أحد دواوينه يتبين لنا ذلك الشعور المزدحم بالآلام فمنها " من وراء الظلام- خلة الموت- في الظلام- مأتم الحب- الكآبة المجهولة- أيها الليل- شكوى اليتيم- السأمة- الدموع- أغنية الأحزان- المسافر الحزين- الكآبة المجهولة- نشيد الأسى- بقايا الخريف- في فجاع الآلام- إلى الموت- صوت تائه- أغاني التائه، إلى قلبي التائه : يا موت ، صفحة من كتاب الدموع، طريق الهاوية، شجون، أنا أبكيك للحب، رثاء حديث المقبرة، في ظل وادي الموت، الجنة الضائعة، الدنيا الميتة، شكوى ضائعة"[1]

من خلال ما سبق نستخلص بعض الملامح والمعالم التي ميزت الرومانسية:

1-إتصال شعرهم بالحنين إلى الوطن والذكريات وقد يكون هذا الموضوع وسيلة للتعبير عن الخيبة تعبيرا غير مباشر.

2-إمتاز شعرهم بالشكوى والإحساس بالحزن والكآبة المستمرة وقد صدقا على هذا اللون من شعرهم وصفه بالمرض الرومانسي.

3-مصادر الشكوى في أشعارهم كثيرة فمنها الوحدة أو الإخفاق في الحياة وهجر الحبيب وقد يخترع الشاعر منهم بلواه لأنه يؤمن بأن الشعر طريقا للإيداع فيه هو الألم وليس السعادة.

كما أنهم يعتمدون نوعا جديدا من المجاز أو الإنزياح المعتمد على تراسل الحواس وذلك تأثيرهم بالشعراء الرمزيين.

- النزوع إلى التشخيص والتشخيص والتجسيم ينقل الأمر المعنوي من مجاله التجريدي إلى الحسي"[2]

1- إبراهيم خليل مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، د، ط، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب الجامعة الأردنية، ص 183 -184.

2- م ن ص 184.

وقد ظهرت الرومانسية في الشعر العربي القديم إذ انتقلت من بلدان العالم الغربي إلى بلدان العالم العربي، فكل الآداب تنتقل من أمة إلى أخرى، " ففيما يخص نشأة الرومانسية في الشعر العربي فنلاحظ انبثاق مدرسة إبداعية قامت في الشعر العربي سواء كان ظهور يوحي من الآداب الأجنبية أم بتأثير من الأدباء العرب الذين وجهوا كلامهم وأقلامهم للتعبير عما يجول بخواطرهم وعن إنفعالاتهم الوجدانية، وقد تعرض النقد العربي لهذه الظاهرة بجدية وذلك من مؤلفات أحمد زكي، زكي شادي، صلاح سيكي، إحسان عباس، محمد يوسف نجم، عيسى الناعوري، محمد غنيمي، هلال محمد، عبد الغني حسن" [1] وغيرهم كثيرون من النقاد والشعراء الذين قدموا إشارات واضحة وأبحاث عميقة في ظاهرة الإبداع الرومانسي في الشعر العربي الحديث ومما لاشك أن هذا المذهب لم يظهر بشكل مفاجئ ولكن هناك عدة عوامل ساعدت في ظهوره"[2]

وقد تعرض العلامة الدكتور " حيور عبد النور" إلى ظاهرة الإنفعال الوجداني لم سبق أن خطرت ببال أحد من الدارسين ويتمثل الإنبهار العربي بأضواء المذاهب الأدبية الغربية، كما نجد الشاعر عموما دولامارتين على وجه التحديد والذي كان له دور الفعال في تنشيط الحركة الأدبية فيما بعد[3]

1- نسيب نشاوي، المدارس الأدبية في الشعر المعاصر ص 165.

2- م ن ص 165.

3- م ن ص 165

لم يستطع الإنسان على الرغم من التقدم المذهل الذي أحرزه في مجال الطب أن يتغلب على الوجع، وأن يقضي على أسبابه وظلت محاولاته الحديثة محصورة في التخدير المرحلي الذي يفقد مفعوله بعد وقت ما.

ناهيك عن تأثيره في صحة المريضة العامة، وفي قواه العقلية والنفسية.

ويمكن الكلام عن نوعين من الألم: المستعصي الذي ينتج عن أمراض جسدية أو نفسية خطيرة، والبسيط الذي يزول بالعلاج والعقاقير [1].

ولا يمكن تخيل حياة من دون ألم لأن الإنسان يواجه متاعب شتى ويمر في أحوال القلق والإضطراب قد تترك فيه جراحا لا تندمل في زمن قصير وكان الإيمان والصبر والتجلد سلاح بعضهم في الخلاص منه ولكن السؤال المطروح هو هل يستطيع المرء أن يشعر بلذة الحياة فيما لو استمرت على وتيرة واحدة من الطمأنينة والراحة والسلام؟

أليست النفس بحاجة من حين إلى آخر إلى شيء من القلق والعذاب حيث يتمكن الإنسان من التمييز بين أوقات السعادة وفترات الحزن؟

وهل عليه أن يثور ويغضب فيما لو صادفته حالة الكمد والإضطراب؟ " يقال: إن الإله الوثني

" زينون" شنق نفسه بسبب كسر في إصبعه ويرى " زلبورغ" أن الفرد يقتل نفسه إذا لم يقدر على تحمل ضغط القوى الخارجية عليه" [2]

بالإضافة تطلعنا شكوى النبي " يعقوب" بكاءه على فراق ولديه " يوسف" و " بنيامين" مما مما أدى إلى بياض عينيه من شدة البكاء والألم.

1- أنطونيوس بطرس، الموت إختيار نقلا عن بدر شاكر السياب شاعر الوجع، أنطونيوس بطرس، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس-لبنان ص5.

2- م ن ص 5.

أما التراجيديا اليونانية فقد غاب عنها الحدث غيابا شبه تام، وعبرت فيها الجوقة عن مأساة الأبطال وهم يجابهون مصيرهم، إنما صرخة الوجع الذي يسحق النفوس العاجزة عن تغيير نمط الحياة، وان ينسى الأدب أبدا صرخة " فيدرا" التي غرقت في جحيم أهوائها واخترقت تيار العذاب والذنب والهوى[1]

بالإضافة إلى هذه الأقوال التي تناولناها مسبقا نجد أنه تعددت مفاهيم الألم والوجع في اللغة والإصلاح والذي تناولته مصادر ومراجع عديدة فوددنا أن نأخذ بعضا منها.

1-تعريف الألم:

" أ ل م : الألم: الوجع والجمع آلام وقد ألم الرجل يألم ألما فهو ألم ويجمع آلاما وتألم وألمته والأليم: المؤلم: والموجع مثل السميع بمعنى المسمع" [1]

فأنشد إبن بر لدى الذمة يصل حدودها وهجع أليم والعذاب، والأليم الذي يبلغ إيجاعه غاية البلوغ، وإذا قلت عذاب أليم فهو بمعنى مؤلم إذا إشتكى وتوجع منه والتألم: التوجع والإيلام الإيجاع، وألم بطنه: من باب سفيه- رأيه - الكسائي يقال ألمت بطنك وشدت أمرك أي ألم بطنك ورشد أمرك وانتصاب قوله بطنك عند الكسائي على التفسير ، وهو معرفة المفسرات ذكريات كقولك قررت به عينا وضقت به درعا، وذلك مذكورا عند قوله عز وجل" ألامت سفه نفسه" وقال " ووجه الكلام، ألم بطنه يألم ألما وهو لازم وقول فعله إلى صاحب البطن وخرج مفسرا في قوله ألمت بطنك" [2]

1- إبن منظور لسان العرب، ضبط وعلق حواسه، خالد رشيد القاطن، الجزء الأول، دار صبح اديسوفيا، ص173.

2- م نفسه. ص173.

والأيلمة " الألم ويقال: ما أخذ أيلمه ولا ألما وهو الوجع وقال شهر عنه : ما وجدت أيلمة ولا ألما أي وجعا" [1] وقال أبو عمرو الأيلمة الحركة وأشد"

فما سمعت بعد ذلك التأمة منها ولأمته هناك إيلاما

قال الأزهري: وقال شهر " تقول العرب" أما و الله لأتبينك على أيلمة ولأدعن نومك ولمه موضع قال صخر الفتي".

القائد الخيل من ألومه أو // من بطن وإذ كأنها العجب

وفي التهذيب: ويجلبوا الخيل من ألومه // من بطن عمق كأنها البجد

كما نجد مفهوم الألم أيضا يختلف عن المفهوم حسب ما جاء في المنجد في اللغة العربية المعاصرة والذي رأى بأن " ألمك ألما: وجع: ألم عضو، ألم: ج آلام: شعور بإنزعاج حسي أو بضيق معنوي" [2] آلام مريض عاش في الآلام عذاب معنوي شعور شاق على صاحبه: ألم النفس الشعور بماء يضاء اللذة، شعور نفسي أم خلقي ألم مبرح وجع جسدي ممضي شديد ألم سد في ألم على مستوى السدفة" ألم حاد متوضع في الشرسوف وتلازمه إضطرابات مصفية"[3] ألم النسا " ألم فقدان الإحساس بالآلام تلقائيا أو وطنيا، مأكولة خبينة غارسة معمرة شديدة النشاط ثمارها بيضة الشكل قدرها قدر بيض البيط: تزرع ثمارها المأكولة تخشى الصقيع"[4]

1- إبن منظور لسان العرب، الجزء الأول، ص173.

2- المنجد في اللغة العربية المراجعة: مأمون الحموي الطبعة الثانية 2001، د ن أنطوان غزال زلمون حرفوش ص37.

3- م ن. ص 37.

4- م ن. ص 37.

نجد " ألم ورد في صيغة أخرى وهي أليمة: مذهب منفعة الألم وسموه، وقيمته الأخلاقية: أليم موجع ألمه جرحه ألمني إصبعي، شب عذابا معنويا بالإدلال أسا بانيل بالكرامة وعزة النفس ألمه هذا التوبيخ الغير العادل، وتناول الألم في موضع آخر.

" إيلام: مضي: إيلام الجوع تطويره جعل الجائع يتألم ويتلوى ومؤلم: بسبب ألما جسديا أو معنويا: جرح مؤلم".

فراق مؤلم معذب ومصور جوع مؤلم مذل أو توبيخ مؤلم مريض تألم بخسارة حلت به حزن، توجع تكدر، إعثم لا تدري متى تألم ومتى تفرح متألم من يعاقب أو يشكو ألما : مريضا متألم يرثى له[1]

وما يقابل الألم في مفهومه لدى الكثير من الشعراء والنقاء مفهوم الوجع هذا الأخير الذي كثرت وتعددت مفاهيمه ومن بين هذه المفاهيم لسان العرب لإبن منظور الذي يرى بأن " الوجع: فلان يوجع، ويجع وياجع فهو وجع من قوم وجعي ووجاعي وجعين ووجاع، وقسوة وجاعي ووجعات، وبنو أسد يقولون بكسر الياء وهم لا يقولون يعلم استنقالا للكسرة على الباء فلما اجتمعت الياءان قويتا واحتملت مالم تحتمله المفردة ويشد لمتمم بن نويرة على هذه اللغة.

فعبدك أن لا تسمعين ملامة ولا تنكبي قرح الفؤاد فيها [2]

ومنهم من يقول:" أنا إيجع وأنت تيجع قال بن بري الأصل في بيجع ويوجع فلما أرادوا قلب الواو يا كسروا الباء التي هي حرف المضارعة لتنقلب الباء قلبا صحيحا ومن قال بيجل وبيجع فإنه قلب الواو ياء قلبا ساذجا بخلاف القلب الأول لأن الواو الساكنة نقلبها إلى الياء كسرة قلبها"[3]

1- المنجد في اللغة العربية المراجعة، ص37.

2- ابن منظور لسان العرب، ص 213-214.

3- م ن. ص 213-214.

قال الأزهري ولغة قبيحة من يقول وجع يجع قال: ويقول أنا أوجع رأسي ويوجعني رأسي وأوجعته أنا ووجع عضوه ألمه وأوجعه هو، الفراء يقال لرجل وجعت بطنك مثل سفهت رأيك ورشت أمرك، قال وهذا من المعرفة التي كالنكرة لأن قولك بطنك مفسر، وكذلك رأيك ونفسك فلما حول الفعل حرج قولك وجعت بطنك وما أشبهه مفسرا قال: وجاء هذا نادرا في أحرف معدودة وقال غيره وإنما وجعت بطنك بنزع الحافظ منه كأنه قال وجعت من بطنك وكذلك سفهت في رأيك[1]

وهذا قول البصريين لأن المفسرات لا تكون إلا نكرات وحكى ابن الأعرابي: " أمضى الجرح فوجعته، قال الأزهري: وقد وجع فلان رأسه وبطنه، وأوجعت فلان ضربا وجيعا، وضرب وضرب وجيع أي موجع وهو أحد ما جاء على فعيل من أفعل، كما يقال عذاب أليم بمعنى مؤلم. وقيل: ضرب وجيع وأليم ذو ألم وفلان يوجع رأسه، نصبت الرأس"[2]

فإن جئت بالهاء" يوجعه رأسه أنا أيجع رأسي ويوجعني رأسي ولا تقل يوجعني رأسي والعامة تقوله " قال صمه بن عبد الله القشيري: متلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا، وتوجع له مما نزل به، رش من مكره نازل.

كما ورد الوجعاء: السافلة وهي الدبر ممدودة، قال أنس بن مدركة:

غضبت للمرء ينكت حليلته وإذ يشد من وجعاتها الثغر

أغشى الحروب وسرب لي مضاعفة تغشى البنات ويسد في صارم ذكر

إني وقتيلي سليكا ثم أعقله كالثور يضرب لما عافي البقر

1- ابن منظور لسان العرب، ص 213-214.

2- م ن . ص 214.

بغي أنها توضعت وجمع الوجعاء وجعوات والسبب في هذا الشعر أن سليكا مر في بعض غزو آل ببيت من حدهم، وأهل حلوف، فرأى فيها إمرأة بضة شابة فغلاما، فأخبر أنس بذلك فادركه فقتله وفي الحديث، لا تمل المسألة إلا لذي ثم موجع وهو أن يتحمل به، فيسعى بها حتى يؤيدها إلى أولياء والمقتول فإن لم يؤذها قتل المتحمل عنه فيوجعه قتله، وفي الحديث: مري بنيك يقلمون أظافرهم أن يوجعوا الضروع أي لئلا يوجعوها إذا قلبوها بأظافرهم[1]

وذكروا الجوهري في هذه الترجمة الجعة فقال " الجعة: نبيذ الشعير، عن أبي عبيد" قال: " لست أدري ما نقصانه" قال بن بريء " الجعة لامها واو ومن جعوت أي جمعت كأنها سميت بذلك لكونها تجعوا الناس على شربها أي تجمعهم" وذكر الأزهري هذا الحرف في المعتل، أم وجع الكبد بتة تنفع من وجعها"[2]

كما نجد مفهوم الألم أيضا يختلف عن المفهوم الأول وهذا حسب ما جاء في المنجد في اللغة العربية المعاصرة والذي جاء فيه الوجع كالتالي: " وجع: أوجاع، ألم حسي، وجع لا يطاق، وجع الكبد، وجع رأس، صعاب، متاعب سبب وجع رأس"[3]

كما نجد وجع وردت في موضع آخر بمعنى" وجع: وجعه مريض، متألم وجيع: مؤلم، جلد وجيع، أوجع: وجعا أوجعته مصيبته حلت به ، موجع: حلت به، توجع وشكى، تفجع الأسير: رثى له وأعرب عن الحزن والأسف، توجع لصديقته في قله في المجارات، متوجع، متألم، مريض، متوجع"[4]

1- إبن منظور لسان العرب، ص 214.

2- م ن. ص 214.

3- المنجد في اللغة العربية المراجعة: مأمون الحموي حرفوش. ص81-150

4- م ن. ص 81-150.

وينقسم الوجع إلى عدة أنواع وكل نوع يرادفه الوجع بمفهوم خاص مختلف عن الآخر، فمثلا نجد الوجع الجسدي الذي " لا يكون نقيضا للذة إلا إذا تخطى على القدرة على تحمله واتساع خلالا في إحدى أعضاء الجسم، وربما تأتي من محاولة العضو المريض إعادة الوضع إلى ما كان عليه من الصحة قبل المرض ولأن المحاولة محددة في مكان معين أو منفصلة عن بقية الأعضاء فهذا ما يعطيها صبغة الألم حسب شاكر والملاحظ في رأي شاكر أنه جعله بمثابة وباء أو مرض يخص جزء أو عضو معين في الجسم ثم تلاه رأي " بوتنديك" فيرى أن الإحساس بالوجع ينتج عنه انقطاع التواصل بين مجموعة الأعضاء فنشعر في هذا الحال بأننا ضعفاء عاجزون تتوجع هربا من الموت"[1] .

وواضح أن الإنسان اليوم لا يكبد الأوجاع التي كان يكابدها جدوده القدماء بسبب العقاقير المعكرة الحديثة وغذ جعل الوجع بمثابة شيء نشعر بفقدانه إذ هذا الإحساس إختلف لدى بني البشر بين القديم والحديث، فالمعاصرون لا يكابدون آلام الوجع عكس القدامى الذين كانوا يركزون على العقاقير في تهدئة الوجع الذي يعتبر بمثابة مخدر للألم كما جاء من بعد الرأيين السابقين.

رأي لورشي الذي يرى بأن الضباط الروس (القوزاق) ينصحون الأطباء الفرنسيين في أثناء الحرب العالمية الأولى بإجراء الجراحة لجنودهم من دون تخذيرهم.

ومما لاشك فيه أن الطاقة على تحمل الأوجاع تختلف من فرد إلى آخر وأن الأقدمين كانوا أكثر مقدرة منا، ويكفي أن نشير إلى تحملهم آلام الأسنان بغياب المخدر. كانت تلك الشجاعة منهم أم عادة مكتسبة بفعل واقع؟ مهما كانت الأسباب فإننا نخشى الوجع، ونهرب منه إما بتفادي أسبابه أو إما بتناول العقاقير ويبقي خاصية إنسانية وربما حيوانية.

1- أنطونيوس بطرس، الموت إختمارا نقلا عن بدر شاكر السياب ص 7.

وإنما الدموع التي تذرفها بنتيجة الآلام الجسدية هي أقرب إلى الواقع الحقيقة من دموع الألم النفسية.[1]

وأيضا "شامفور" فنجده يقول" خلصني يا رب من الأوجاع الجسدية أما النفسية فأنا أتدبر أمرها"[2]

قد جعل الوجع الجسدي أكثر حدة وإيلاما من الوجع النفسي هذا الأخير الذي تؤلمه وتوجعه إذ اعتبر حالة نفسية وهي مظهر من مظاهر الوجع.

ب- الوجع النفسي:

" مظاهر الوجع النفسي الإكتئاب، والشعور بالإحباط والخوف واليأس وتمكين الضمير وسوى ذلك. والإنسان بحسب " جان بول سارتر" يتألم بوجوده ويعي حقيقة ألمه، ولعل هذا القول يوفق رأي البوذية التي ترى الولادات المتجددة الآن هي الألم والهرم والمرض والموت. وهذه هي التي ولدت النحيب والألم من الفرح أيضا.

وتقول وصية بوذا " أيها الرهبان هاكم حقيقة الألم والولادة ألم، الشيخوخة ألم ، عدم تحقيق الرغبة ألم، الإنعتاق من اللذات الأرضية ألم....."[3]

في رأي بوذا أنه جعل الألم في درجات متساوية، أي جعل الآلام الحسية نفسها معنوية أي كل ألم حسي في نفس المرتبة، الألم الجسماني كألم الولادة وألم الشيخوخة وألم عدم تحقيق الرغبة.

" ويبقى الوجع رفضا لما لا يمكن تجنبه كما يقول "برتسون" وتجمع البوذية والرواقية سبينوزا وشوبنهاور على أنه خاصية إنسانية لا يمكن إزالتها.

1- أنطونيوس بطرس نقلا عن بدر شاكر السياب ص7،8.

2- م ن. ص 7،8.

3- م ن . ص 8.

وإنما يمكن للمرء أن يتدرب على تحمله ضمن نطاقه المعقول" ووجدانيات أبي فراس والمعتمدين عباد و...إلخ وكان الوجع المهاز الذي ألهب قرائح أولئك الشعراء، كما أنه لم يغب في العصر الحديث.

عن أدب جبران وبولس سلامة وبدر شاكر السياب وكثيرين [1]

والتقى أدب الشرق بأدب المغرب في صرحات متشابهة ، وبدر شاكر السياب وكثيرين منهم التقى أدب المشرق بأدب المغرب في صرحات متشابهة حتى بتنا نخلط موسيه وإلياس وأبو شبكة يقول:

إجرح القلب واسقي شعرك منه *** قدم القلب خمرة الأقلام

وكان موسيه قد سبقه إليه بقوله:

إن الأغاني المخصبة باليأس هي الأجمل وإنني أحفظ الكثير منها وهي تنهدات خالصة[3]

ومن هنا يتضح لنا الوجع النفسي ما هو إلا حالة نفسية شعورية داخلية تحدث عن أوجاع جسدية، تخص أعضاء وأجزاء محددة إذ يتنوع الوجع النفسي بحسب تنوع الوجع الجسدي.

ومن هنا يتضح لنا علاقة إرتباط الوجع النفسي بالجسدي وهو ما يوافق قول بوذا السابق.

كما نجد أيضا نوعا آخر من الوجع وهو الوجع عند الرومنطقيين وفي ذلك يقول " إن من لا يغسل مرة بدموعه في العام يبقى متسخا أبد الدهر مضرب مثل وجاء في كتابه التائه.

1- أنطونيوس بطرس السباني نقلا عن بدر شاكر السياب ص 8.

2- م ن. ص 9.

3- م ن. ص10.

" قالت محارة لمحارة تجاورها إن بي ألما جد عظيم في داخلي إنه ثقيل ومستديم وأنا معه في بلاء وعناء"[1] وردت المحارة الأخرى بانشراح فيه استعلاء:

الحمد للسموات والبحار لا أشعر في سري بأي الم أنا بخير وعافية داخلا وخارجا ومر في تلك اللحظة سرطان مائي وسمع المحارتين وهما تتساقطان الحديث. وقال للتي هي بخير وعافية خلى وخارب: نعم أنا بخير وعافية ولكن الألم الذي تحمله جارتك في داخلها إنما هو لؤلؤة ذات جمال لا حد له"[2]

ولا يبتعد هذا القول كثيرا عن أقوال الزهاد والمتصوفين والنساك والمسيح نفسه سار درب الجلجلة وصلب ومات ويصبح الألم سمة مرادفة للعظم، للرجل العظيم قلبان قلب يتألم وقلب يتأمل وربما كان ضروري للنفس والجسد كما الملح للعظام وإن للملح قوة مقدسة عجيبة لذا هو كائن في دموعنا وفي البحر، واستبعد الرومنطقيون وجع الحب لأن الرجل يحتقر المرأة السهلة المنال يقول أبو شيكة:

عذبي ما شئت قلب عذري *** فعذاب الحب أسمى مطلبي[3]

" وللشعراء العذريين ميلان وجولان مع الحرمان والعذاب ولعل هذا ما فتق عبقرياتهم عن قصائد الوجد، الصداقة ووسمها بميسم الوجدانية المحببة وما قبل عن الشعراء العذريين يمكن قوله أيضا عن شعر الرثاء والأسر والتصوف وخير شاهد على ذلك بكائيات المهلهل والخنساء وابن الرومي وجرير"[4]

1- أنطونيوس بطرس السباني نقلا عن بدر شاكر السياب شاعر الوجع ص 9.

2- م ن. ص 9.

3- م ن . ص10.

4- م ن . ص10

" يختلف الشعراء في إحساسهم بالكون أو بأنفسهم وما حولهم وما يحيط بهم إختلاف منبعه العمق والجدية في الإدراك والنفوذ إلى أعماق ما يصورونه ، فهم ليسوا جميعا سواء في الإحساس بل منهم من هو سطحي الإحساس لا يكاد يلمس ما يصفه إلا لمسا خفيفا، وهو لذلك لا يؤثر فيك إلا تأثيرا من الظاهر إن صح التعبير فشعره فاتر لا حرارة فيه، ومن الممكن أن نودع في هذا القسم مجموعة من النظاميين الذين لا ينفعلون أي إنفعال قبل الأشياء،وإنما هم يسجلونها في شعرهم، كأن شعرهم صحف حسابية للأعداد والأرقام" [1]

ومن الشعراء من ستعمق بما يدركه ويحسه من ذات نفسه أو ما يبصره ويشاهده في الكون من حوله، تعمقا يصل إلى باطنه وخفايا داخله، فنقرأ ونشعر ونحس كأننا حلم في سحري، ونشعر بشيء من التسرية عن أنفسنا والراحة والمتعة الحقيقية، لأن الشاعر ينفس عما في داخلنا بما يجري على لسانه في أبياته، أو قل من مشاعره وإحساساته.[2]

فنحن عنده نستقبل أنفسنا وعالمنا بكل ما فيه من اضطراب وقلق وكمال ونقص إذ العالم ليس كما لا خالص ولا نقصا خالصا، بل هو مزيج منهما ينتظر الشاعر الذي يحسه إحساسا حادا ويعرضه.

" وليس من شك في أنه بمقدار ما يكون في الشاعر من مادة الإحساس تكون موهبته في الشعر كما يكون تأثيره في سامعيه وقراءه، وهل ضعف الشعر العربي في أواخر عصوره الوسطى إلا ا لضعف هذه المادة عند شعراءه فأصبحوا كالببغاوات يصيحون بكلام مكدر معاد قلما يفهموه أو أحسوه، وقد أخذوا ينقلونه من هنا وهناك دون أي تعديل أو تحريف يدخل في شعرهم شيئا من روح أو حياة"[3]

1- محمد لطفي اليوسفي، الشابي منشقا، الكتابة بالذات بجراحاتها، طبع هذا الكتاب بالمطابع الموحدة مجموعة سراس أفريل 1996، ص141.

2- م ن. ص 141.

3- م ن. ص 141.

ومن هنا فإن الشعر كان بمثابة الحفاظ على كل شيء قديم موروث شرط التجديد فيه وهو ما عرف بالتطبيق فالشاعر هنا نجده ينظم قصيدته مبنية على القديم أي العمود الشعري فهو لا يضيف إلا ما هو ضعيف في البلاغة[1]

وهذا من أجل الحفاظ على الشكل التقليدي للقصيدة أي الحفاظ على مضمونها والإبقاء على كل ما هو موجود في القصيدة القديمة وهي ما جعل فيها أصحابها ركائز أساسية لا يمكن تبديلها أو إطراء أي تغيير فيها وبذلك أصبحت بمثابة بركة راكدة.

ومن بين هؤلاء الشعراء النظاميين لتلك القصائد الشاعر إبن الرومي نحس بأعصابه وهي تهتز وترتجف في شعره ومن ثم لا نبالغ إذا قلنا أنه لم يحس نفسه فقط بل أحس ما حوله من دقائق الحياة.

وهنا نجد ابن الرومي لم يسخر شعره لنفسه فقط بل هذه لكل ما يحيط به وكذلك المتنبي الذي يحس كيانه وحياة الناس السياسية والإجتماعية في أعماقه واندفع في التعبير عن هذا الإحساس على أقصى حد حتى أصبح فيه مضرب الأمثال، وهنا فهو يعبر عما كان يخالج نفسه ونفوس الآخرين وهذا من الناحية الإجتماعية والسياسية إذ أصبح مثلا يضرب به في جميع المواضيع.

" كما صادفنا أبو نواس يحب الحياة وملاذها ومثل ذلك تمثيلا رائعا في وصفه وحبه للخمر التي اتخذها وسيلته لتصوير بمحبته وفرحته بدنيا فهنا نجده محبا للحياة عابدا للخمر. أما أبو العلاء المعري نمو حبيس بصره، يحس في دقة بما يجري في الحياة حوله من خير وشر وسعادة وشقاء

1- محمد لطفي اليوسفي، ص141.

وبلغ منه الإحساس أن نظم فيه ديوانا ضخما هو ديوان اللزوميات"[1] وأحلام وفيه أمن وسلام ويخيل على أن هذا الصبي الصغير كان منطويا على نفسه لا يمرح مع رفاقه، ولا يشاركهم في ألعابهم سبب إحساسه بضعفه[2]

إذ يمكننا أن نعتبر هذه الأسباب السابقة الذكر سببا في زيادة الألم والمرض على نفسيته وكانت آلامه مرتبطة بسبب معين ومحدد أي كان بمثابة منابع لها، وكل منبع بمثابة مصدر إلهام لشعره، إذ نجد هذا الأخير كان معبرا عن كل الآلام التي كانت تخالجه سواء كانت هذه الآلام أوجاعا نفسية أو جسدية كألم المستعمر الداخلية وما خلفته من أثار دميمة له ولشعبه، وقد تعددت هذه الآلام التي كانت بدورها ناتجة عن منابع مختلفة مثل: منبع المرض، منبع حب الحياة، منبع المجتمع، ومنبع المستعمر، وقد إنتقينا هذه المنابع لكونها أثرت بصفة كبيرة في نفسية الشاعر فحزته على كتابة الشعر الذي كان بمثابة سلاح للترويح عن نفسه.

1- محمد لطفي اليوسفي، ص141.

2- محمد مصطفى هدارة بحوث في الأدب العربي الحديث (د، ط) دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، ص 123.

الفصل الثاني

ألم المرض وألم المجتمع

أولا: ألم المرض

1- ترجمة الألم عند الشابي

1-1/ الحياة وتأثيرها في نفس الشاعر.

1-2/ شكوى الليل

ثانيا: ألم المجتمع

1-الإيقاع الأسطوري والانفتاح عليه

1-1/ أشعار التحدي

1-2/ أشعار العزلة والإنطواء

2 - الكتابة بالذات لدى الشاعر

3-مكانة التكرار في عمق التجربة الشعرية

1-ترجمات الألم عند الشابي:

من يصابون بالمرض مثل أبي القاسم الشابي يختلفون، فمنهم من يتألم ولن يحول ألمه إلى فلسفة في الحياة، وإلى تفكير واسع فيما يلاحقها من نعيم وبؤس وسعادة وشقاء، فالألم عند أبي القاسم الشابي لا يتحول إلى الحياة البشرية كلها، وترتطم به صخور الشر والظلم الصارخ[1]

ومن المرض من يعلو على ألمه بل من يحاول أن يقهر ألمه وينتصر عليه وغلى النهاية بل هو كثير التسامح، كل ما حوله في الطبيعة جميل، وجماله يفقده الوعي بنفسه وما يعتصر قواه من مرضه وفرحته بالكون تعلو على كل الأمة، إذ تطرد من صدره من كل الوساوس، والأوهام التي تجيش بصدر أمثاله.[2]

ومن هنا يتراءى لنا أن الآلام الناتجة عن الأمراض لدى المصابين بها، تختلف من مريض إلى آخر، فمنهم من يعبر عن ألمه بأقوال أو أفعال تعبر عن نعيم أو بؤس وسعادة أو شقاء، ومنهم من يطمرها في نفسيته فيعبر عنها بأشعار، وخير مثال لذلك أبي القاسم الشابي الذي لا يحوله للعويل والبكاء ونذب نفسه وحياته ندبا حادا.[3]

أ- الحياة وتأثيرها في نفس الشاعر:

وتصادف أن إحساس أبي القاسم الشابي حاد وجعلته حدته محبا للحياة حبا بها. وشعر برؤوس أفاع تمتد إليه في طريقه فتمنعه من السير بل ترده إلى داره إن لم يكن إلى فراش علة.

فرجع محزونا يجر أذياله والكآبة قد ملأت نفسه، وملأها أيضا .

1- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، الطبعة السابعة، دار المعارف بمصر 1959، ص143.

2- م ن. ص 143.

3- م ن. ص 143.

" الإحساس الدقيق بالكارثة وما ينتظر من موت عاجل ومحتوم، ولم يجد أمامه ما يبث حوائجه سواه ناي شعره، فأخذ يشدو عليه أغاني مشجية نظمها والدموع تنهمر من عينيه وهي لذلك تعد أشهى أغانينا في العصر الحديث لأن صاحبها بللها بدموعه وهو يكتبها، ولأنها تصور ألما حقيقيا؟ بل لأن صاحب هذا الألم كان حاد الحس فسقط لا على الألفاظ كما تمثل ألمه وإنما على الإبرالي تلسع وهي الإبر في نبرات قلبه فأصبحت تكوي وتلذغ"[1]

وهنا نجد سبب محبة الشابي وتشبته بالحياة هي الآلام التي كانت تحاصره، إذ تحولت في ناظره إلى رؤوس أفاعي تمتد إليه فتمنعه من السير لا بل ترده إلى فراش المرض بل الموت . وقد عبر عن ألمه وحزنه بكلمات نسجها ليكون لنا قصيدة أغنية الأحزان وفيها يقول:

حطمت كف الأسى قيتارتي *** في يد الأحلام

فقضت صمتا أناشيد الغرام *** بين أزهار الخريف الذاوية[2]

و فيها يرى الشاعر بأن الآلام قد حطمت نفسيته فقضت على كل الأحلام التي تلاشت في ظلام الليالي الحالكة.

كف عن تلك الأغاني الباسمة أيها العصفور*** فحياتي ألقت لحن الأسى

من زمان قد انقضى وعسى*** أن يثير الشدو في صمت الفؤاد أنه الأوتار[3]

1- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ص143-144.

2- أبو القاسم الشابي أغاني الحياة ،ص 44.

3- م ن. ص 44.

وفيها يأمر العصفور بعدم التغريد كونه قد ألف العزلة والحزن والحياة البائسة التي لا تحتوي على أي مظهر من مظاهر الفرحة.

لا تغني أغاريد الصباح

بلبل الأفراح

ففؤادي وهو مغمور الجراح

بتباريح الحياة الباكية [1]

فيها إعتبر فؤاده قد مات فانطوى إذ لا يحيه لا أغاريد الصباح ولا بلبل الأفراح

ليس تستهويه ألحان السرور

وأغاني النور

إن من أصغى إلى صوت المنون

وصدى الأجدان

ليس تستهويه ألحان الطيور

بين أزهار الربيع الساحرة

وإبتسامات الحياة السافرة [2]

1- أبو القاسم الشابي ، ص 45.

2- م ن. ص 45.

وفيما يعتبر الشاعر أن ألحان السرور والأفراح لا تغريه ولا تستهويه

غني يا صاح أنات الجحيم وإسقني الآلام

وإقرع الكأس بأوجاع الهموم

و إسقني إني كرهت الإبتسام

عني تدب الأماني الخائبة والليالي السود

غني صوت الظلام المكتئب

إنني أهواه[1]

من المعروف والمألوف لنا سابقا بأن الطير يغرد ويغني وهذا دلالة على بداية حياة جديدة ملأتها السعادة باعتبار الغناء رمز لها. لكن الشاعر في هذه الأسباب قد وصف موقف معاكس إذ أمر الطير بأن يغرد تغريد الألم والموت والليالي السود والتي تغير في صوت الظلام الكئيب على أنات شخص وحيد هذا التحطيم، إذ كان المرض سهما بتارا طعنه في أعماق صميمه، ويتطلع إلى الحياة كأنها شمس تغيب في الأفق، وكان الشابي لا يحس بمتعة الحياة كأنها شمس تغيب في الأفق، وكان الشابي لا يحس بمتعة الحياة وهذا بسبب الذكريات التعيسة فهو لم يرد بعد اليوم لا رؤية الصباح ولا سماع زقزقة العصافير، فقد غطت الكآبة ليله ونهاره فأصبحت ظلاما مطبقا لا تعرف النور وتضفي السرور.

1- أبو القاسم الشابي أغاني الحياة ، ص 45، 46.

فكيف يحس بنعمة الحياة والمرض يحاصره من كل زاوية إذ كانت رياح الخوف تعصف به من كل الجوانب حيث كانت أصوات الموت ما هي إلا ذبذبات تصم آذانه.

وأصوات الأجراس المقروعة التي كانت مجهولة المنبع أهي من بعيد أم من قريب في أحشاءه أو سويداء فؤاده؟

والأسباب السالفة الذكر كلها دور في إعلاء بكائه، حيث حول غناء الطير الفرح على أنات جحيم مسعورة ممتلئة بالآلام وأوجاع الحياة.

لقد كان الشابي رومانسي النزعة هذا ما يجعله يشفي ظمأه، ويطفي غلته من خلال آلامه وآلام السابقين أي محب للعزلة والحزن أكثر من صحبته لغناء الطيور وفرح الآخرين.[1]

لم يستطع أي شيء ردع الشابي عن الشعور بالألم لأنه كان يره كل آماله وأحلامه تتساقط أمام عينيه كأنها أوراق أشجار تتساقط في الخريف، وما لقصيدته " مأتم القلب" إلا دليل على إنهمار دموعه فيقول فيها:

في الدباجي

كم أناجي

مسمع القبر بغصا ت نحيبي وشجوني

ثم أصغى علني أس مع ترديد أنيني

فأرى صوتي فريد

1- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص 146.

مات حبي

فأذرفي يا مقلة اللي ل الدراري عبرات

فوق قلبي فهو قد ود ع آفاق الحياة

بعد أشواق اللهيب[1]

ورد في أغنية " مأتم القلب" أن "هذا الحب الذي يرثيه أبو القاسم في حبه للحياة، وتألقه. بما كان يسطع عليها من بصره من جمال ويطمع إلى التعبير عن ذلك لكن لا يستطيع بسبب ألمه وجرحه الناتج عن مرضه وعند محاولة للتعبير عن فرحته وأحاسيسه الجمالية ينعكس عليه هذا الشعور عند اقترابه من تلك الأحاسيس فيعصر الأسى قلبه ويطغى عليه الإحساس بالحزن لأن السعادة التي تشعر بجمالها قد سرقت من بين عينيه حيث أن الشابي فقد إحساسه بالحياة وملذاتها، وركز على مشاعر تقوده إلى فكر واحد ووحيد هي دنو الموت منه واقتراب أجله، لدى فهو لا يملك دفاعا لمواصلة الحياة وما يفرج عن محنته، وحلمه الذي أصبح أوراقا متساقطة مثل تساقط الشهب في الفضاء" [2]

1- أبو القاسم الشابي أغاني الحياة ، ص 38.

2- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص 147.

إذ أصبحت حياته عبارة عن ظلام موحش وأشباحا مخيفة فعبر عن كل هذا وذاك في قصيدة يقول فيها:

أرأيت شحرور الفلا *** مترنما بين الغصون

جمد النشيد بصدره *** لما رأى طيف المنون

***

فقضى وقد غاصت أغا *** ريد الحياة الطاهرة

وهوى من الأغصان ما *** بين الزهور الباسرة [1]

وهنا نجده يعبر عن مدى قوة طيف الموت والدليل على ذلك تأثر الشحرور بتلك فقضي بذلك على أغاريد الحياة الطاهرة وهوى على الزهور الباسرة.

أرأيت أم الطفل تب كي ذلك الطفل الوحيد

لما تناوله بعن ف ساعد الموت الشريد

***

أسمعت نوح العاشق ال ولهان ما بين القبور

يبكي حبيبته فيا لمصارع الموت الجسور [2]

1- أبو القاسم الشابي أغاني الحياة ، ص 38.

2- م ن . ص 25-38.

من خلال هذه الأبيات نجد حياة الشابي أصبحت عبارة عن أشباح الموتى التي يراها في كل وقع عليه بصره، من حيث يأخذه الفزع من كل جانب ولم يكن هناك وقت يزدحم عليه كالليل.

ب- شكوى الليل: يئس الشاعر من البشر ولم يجد إلا في الشعر متنفسا لعواصفه، ولم يجد إلا في ظلمة الليل وأجفان الزهور مصبا لآهاته وعبراته وإن في هذه الوثبات الخيالية ما يروع وإن في أسلوب الشاعر التعبيري وجمعه بين البساطة والسمو، وما بين السهولة وروعة الإبتكار ما يجعلك تقف أمام عبقريته موقف إعجاب وإكبار[1].

حيث جعل الشاعر الليل ونيسه الوحيد بخياله في عزلته، حيث كان يشرح له صدره وإن كانت لا يمكن أن تشرح من الآلام كان هو مخفف له همه وآلامه، حيث قال في عدة قصائد من أروع أعماله وأكثر الآثار التي شهدت له[2].

ومن بين هذه القصائد نجد أغنية أيها الليل وفيها يقول:

أيها الليل يا أبا البؤس والهو ل ويا هيكل الزمان الرهيب

أنت يا ليل ذرة صعدت لل كون من موطئ الجحيم الغضوب

يا ظلام الحياة يا لوعة الحز ن ويا معرفة التعيس الغريب

فيك تنمو زنابق الحلم العذ ب وتدوي لهيب الخطوب

ويفود بك في ضفائرك السو د وتدب الأيام أيا دبيـــــــا[3]

1- شوقي ضيف : دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص 148.

2- م ن، ص 148.

3- أبو القاسم الشابي أغاني الحياة، ص 49-50.

فالليل عنده رمز العذاب وأي عذاب، عذاب المريض حين يخلو بنفسه في فراشه وأي فراش، فراش الموت في غياهب الليل الذي يحس في أثناءه بالعزلة الخانقة التي تشد على صدره فتجعله أشبه بأسير مقيد بالأغلال إذ يجمع الشابي أمره المتضمن لآلامه وينظر في كل هذا الهول إلى أعماق نفسه[1] فنجده سرعان ما يقول:

سددت في سكينة الكون لأعمـــ اق نفسي لحظا بعيد الرسوب

نظرة مرتقب شغاف الليالي فرأت مهجة الظلام الهيوب

ورأت صميمها لوعة الحز ن وأصغت على صراخ القلوب

إنما الناس في الحياة طيور قد رماها القضا بواد رهيب

يعصف الهول في جوانبه السو د ليقضي على صدى العندليب

وهنا نجده أن الشابي قد كان يسدد نظره إلى ظلمات الليل فلا يرى سوى الآلام والآمال التي كانت تتلاشى أمام ناظريه وقد جعل الناس بمثابة عصافير قد اصطادها قناص القضاء ورماها في وادي الحزن والألم حيث الموت هو واد جارف قد أغرقهم[2]

ومن خلال اطلاعنا على أشعار أبي القاسم الشابي وجدناها كلها حزن وألم يجتاح قلبه الحساس.

1- محفوظ كحوال، أبي القاسم الشابي مع روائع شعره الحب والحزن والطبيعة والسياسة نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع 2007، ص150.

2- أبو القاسم الشابي أغاني الحياة ، ص 50-51.

"بعد عام من زواج أبي القاسم الشابي فجع بموت والده، وكان ذلك الحديث في النوازل المهمة التي تركت أثرا عميقا في نفس الشابي وفي حياته وشعره، وأني لا أعجب في هذا المقام من كاتب تونس تناول الشابي بدراسته فاستخلص له بعض المبادئ منها: بعده عن شعر المناسبات حتى أنه لم يرث والده حينما مات، ولا شيء أن هذا الكاتب، هو أبو القاسم محمد كرو- لم يتعمق قراءة شعر الشابي ليسمع أمه الجريحة بعد أن دهمت مصابه بوالده" [1] إذ يقول:

يا موت قد مزقت صدري وقصمت بالأرزاء ظهري

وفجعتني فيمن أحب ومن إليه بت ســـــــــري

وأعده فجرى الحميـــــــ ل إذا أدلهم على أمـــــري

وأعده وردى ومزمـــــــ اري وكأساتي وخمـــــــري

وأعده غايتي ومحـــــــــ رابي وأغنيتي وفجـــــري

ورزأتني فـــي عدتي ومشورتي في كل أمـــــــر

وهدمت صرحا لا ألـــــو ذ بغيره وهتكت ســـــــري[2]

ومن خلال إطلاعنا على هذه الأبيات نحس بمدى تأثر أبي القاسم الشابي بوفاة والده وتمزق فؤاده بشدة الحزن والأسى لفقدان الأنيس الوحيد الذي كان يعد بمثابة البئر يصب فيه جل أسراره وينتظر الرد عليها.

هذا الأب الذي كان بمثابة الورود والمزمار وكؤوس الخمر.

1- مصطفى هدارة بحوث في الأدب العربي الحديث، ص 121.

2- ديوان أبي القاسم الشابي قدم له وشرحه الأستاذ أحمد حسن سبح دار الكتب العلمية بيروت- لبنان منشورات محمد علي بيضون، ص 85-86

((ولم يفقد أبي القاسم الشابي أباه فحسب، وإنما فقد راحته وهناءه أيضا إذ كان عليه أن يدبر معاش إخوته، ويرعى شؤون الأسرة إلى أن أصبح عائلها وعمادها وحياتها، ولاشك أن هذا العناء الذي ألقي على كاهل الشابي، قد أثر في نفسيته تأثيرا خطيرا لأنه أحس به قيدا يحرم إنطلاقه ويجذبه إلى الواقع الأليم كلما أراد التهوية في سماوات الفن والخيال))[1] وهو يصور لنا ذلك كله في قوله:

وأود أن أحيا بذكرى شاعر فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
ألا إذا قطعت أسبابي مع الدنيا(م) وعشت لوحدتي وظلامي
لكني لا استطيع فإن لي أما يصد حنانها أوهامي
وصغار إخوان يرون سلامهم في الكائنات معلق بسلامي
فقدوا الأب ألحاني فكنت لضعفهم كهفا يصد غوائد الأيام
ويقيم وهج الحياة ولفحها ويدود عنهم سيرة الآلام
هجمت إلى الدنيا على أهوالها وخصمها الرحب العميق الطامي
قد حطمت نفس على شطائر وتأججت في جوه آلامي[2]

وهنا نجد أن الشابي كره الحياة إذ لم يستطع أن يعيش فيها ويعتبر نفسه جزءا منها.

1- محمد مصطفى هدارة بحوث في الأدب العربي الحديث ص 122.

2- م ن ص 122.

((ولا يستطيع الشابي بكيانه الرقيق وإحساسه المرهف وعالمه الخيالي الذي بناه بالرؤى والأحلام الجميلة. أن يثبت لضربات الحياة تلك موت رفيق صباه ومرضه وإحساسه بالموت ووفاة والده، عبء أسرته فسقط فريسة سهلة لدائه وسلم بأن عالمه الخيالي ليس له وجود في عالم الأحياء عالم الواقع المر والشكليات التي تصيب الإنسان في نفسه وأحبائه وعند ذاك استسلم للموت ليجد في عالم الفناء الكون الذي شيده بنفسه وأحلامه ورؤاه))[1]

أما إذا خمدت وانقضى عمري وأخرست المنتبه تأتي

وحنا لهيب الكون في قلبي الذي قد عاشت مثل الشعلة الحمراء

فأنا السعيد بأنني متحول عن عالم الآلام والبغضاء

وأذوب في فجر الحياة السرمدي(م) وأرتوي من منهل الأضواء[2]

وهنا نجده قد إستسلم لأعباء وآلام الحياة وأصبح يريد الإنتقال إلى العالم الآخر وهو عالم الخلود بعيدا من كل الآلام والبغضاء.

((وإذا تركنا حياة الشابي المترددة بين الحقيقة والخيال وجدنا شعره صورة لحياته، ولكن بعض الدراسات التي تناولته لا ترى ذلك ولا تؤمن به، فهو عندها واقعي دائما، وهذه الخيالات عنده رمز للأشياء أخرى عميقة لا يدركها إلى البصير إلى آخر ما تذهب غليه هذه الدراسات إلى أعينها))[3]

1- محمد مصطفى هدارة بحوث في الأدب العربي الحديث ص123.

2- م ن. ص 123.

3- م ن. ص 123.

مما سبق تناوله نستخلص أن المرض أدى دورا في حياة أبي القاسم الشابي وهذا منذ صغره ما جعل حياته كلها آلام وأوجاع التي إشتكى منها كل من نفسه وجسمه(ألم معنوي وألم ذاتي).

كان المرض كابوسا له أصبح يراه في كل زاوية ومكان، فغلب على تفكيره والدليل على ذلك أشعاره التي تعبر معظمها عن التشاؤم.

وقد عبرت أشعار الشابي عن الكآبة والشؤم والألم والحزن، فتميز شعره عن باقي أشعار غيره الذين كانوا تحت مضمار واحد ألا وهو " الرومانسية".

آلام المجتمـــــــــع:

إن حياة الشابي مليئة بالشقاء والألم عامرة بالأحزان مغمورة بالكآبة وقد زاد على كل هذا مجتمعه التونسي والذي قضى الشاعر في محيطه فترة قصيرة.

لقد كان مجتمعا مريضا في جسده وروحه باليا في تفكيره وآرائه مستسلما لأوضاعه الفاسدة، وليس من اليسر على شاعر كالشابي، مشبوب الخيال دقيق الحس والشعور أن يرضى عن هذا المجتمع وأن يطمئن لنوع الحياة التي يعيشها مما أدى به إلى السير في مضامير مختلفة في شعره، شملت عدة عناصر كان لهما الدور في تتويج شعره بالنجاح والرقي.[1]

I. الإيقاع الأسطوري والإنفتاح عليه:

" إن الإيقاع الأسطوري هو الذي يقوم بإيجاد الشعري وتوجيهه نحو الدري التي ينشدها الكلام، وبدونه يصبح الكلام مجرد محاكاة للواقع توهم بأنهم تصفه وتكشف عن خباياه، فيما هي تحجبه وتفقره، حيث تكتفي بما ظهر منه، فلا ترى الخيالي المتكتم على نفسه في صميم ذلك الواقع" [2]

فمن خلال كل هذا نجد الشابي في حضرة الأنا الإجتماعية إذ تكشف من شخصية الشاعر جانبها العادي[3]

وهذا ما جعله يسير في درب كان يحمل عنوانين، الأول: شعر التحدي، والثاني: العزلة والإنطواء، فكان الثاني هو عبارة عن خاتمة للأول إذ كانت ردود الشاعر إزاء هذه الآلام ممزوجة ما بين أشعار التحدي والعزلة والإنطواء[4].

1- أبو القاسم محمد كرو الشابي حياته وشعره منشورات دار مكتبة الحياة بيروت- لبنان ص1.

2- محمد لطفي اليوسفي، الشابي منسقا الكتابة بالذات لجراحاته، ص39.

3- م ن. ص 39.

4- م ن. ص 34.

ومن هنا فإننا نتطرق إلى :

أ/ أشعار التحدي:

نجد الشاعر يعيش أزمة تواصل مع الآخرين فيقول:

.....كم أنا في الدنيا غريب .....

بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي[1]

أصيب الشابي بخصوم لا يقدرون له أدبه وشعره، فكان هذا يحز في صدره ومن بين القصائد التي رد فيها عليهم نجد:" النشيد الجبار" التي تصور تمسكه بإرادة الحياة و فيها يقول:

سأعيش رغم الداء والأعداء *** كالنسر فوق القمة الشماء

أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا *** بالسحب والأمطار والأنواء

لا أرمق الظل الكئيب ولا أرى *** ما في قرارة الهوة السوداء

وأسير في دنيا المشاعر حالما *** غردا وتلك طبيعة الشعراء[2]

كما يواصل ويقول:

وأقول للقدر الذي لا ينثـــــــى *** عن حرب آمالي بكل بلاء

لا يطفئ اللهب المؤجج في دمي *** موج الأسى وعواصف الأرزاء

فإنهدم فؤادي ما استطعت فإنه *** سيكون مثل الصخرة الصماء

لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا *** وضراعة الأطفال والضعفاء

ويعيش كالجبار يرنو دائما *** للفجر، للفجر الجميل النائي[3]

1- محمد لطفي اليوسفي، الشابي منسقا الكتابة بالذات لجراحاته، ص39.

2- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، د،ط، دار صالح تلانتيقيت ، ص 178.

3- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة ص178.

من هذه الأبيات يتجلى لنا أن عزيمة الشاعر كانت مرتبطة بكل ما هو ملموس بالإضافة إلى هذا كانت مرتبطة أيضا بالقدر الذي سيطفي نوره وآماله الذين كان طالما يحلم بهما إلا أنه تحدى كل الآلام والقدر المحتم ويمكننا وصفه بالصخرة التي تتصدى لكل شيء.

" ومن هنا نجد أن الشاعر قد غض البصر على كل ما هو متعلق بالقدر وما يحمله في طريقه من مخاوف الليل وزوابع الشوك وصواعق البؤس، فبالعكس فهو سيكون سعيدا فرحا لابتعاده عن عالم البغض والآثام"[1]

كما توجه إليهم أيضا بخطابه الذي قال فيه:

إن المعاول لا تهد منـــــــــاكبي *** والنار لا تأتي على أعضائي

فارموا إلى النار الحشائش والعبوا *** يا معشر الأطفال تحت سمائي[2]

كان الألم يعتصر قلبه لما يزدري هؤلاء الخصوم من شعره وفنه، وكأنه لم يعرف أن هذه عادة النفوس الصغيرة.

" لقد كان الشابي حاد الحس والشعور فلم يسامح خصومه بل تحول يقذفهم بحجارة يريد أن يدمي رؤوسهم، ولم يقف عند أشخاص معينين من شعبه بل تعداهم على شعبه كله في ساعة من ساعات غضبه"[3]

1- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر ص 154.

2- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص 179.

3- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر ص 155.

حيث نجده يقول:

أيها الشعب ليتني كنت حطابا *** فأهوى على الجذوع بفأسي

ليت لي قوة العواصف يا شعبي *** فألقي إليك ثورة نفسي

ليت لي قوة الأعاصير إن صحت *** فأدعوك للحياة بنسبي

أنت روح غبية تكره النور *** وتقضي الدهور في ليل ملس

في صباح الحياة ضمنت أكوابي *** وأنزعتها بخمرة نفسي[1]

من الأبيات يتضح لنا أن الشاعر يتمنى أن يكون حطابا لكي يهوى على الجذوع بفأسه ويتمنى كذلك أن يتوفر له قوة الظواهر الطبيعية كي يسخرها ضد شعبه الذي طالما تمنى أن ينهض من سباته ويواجه عدوه.

كما يقول الشاعر:

ثم قدمتها إليك فأهرقت *** رحيقي ودست يا شعب كأسي

ثم نضدت من أزاهير قلبي *** باقة لم يمسها أي إنس

ثم قدمتها إليك فمزقت *** ورودي ودستها أي دوس

ثم ألبستني من الحزن ثوبا *** وبشوك الصخور توجت رأسي

ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعـ*** بي لأقضي الحياة وحدي بيأسي[2]

1- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص 103.

2- م ن . ص 103.

نجد أن كل الآمال التي بناها الشاعر على شعبه قد تحطمت فبدلا من أن يقف إلى جانبه وقف ضده، فكان للشاعر عدوان، العدو الأول وهو المستعمر، والعدو الثاني الشعب الخائن فقد فضل الشاعر العيش وحده مع آلامه ويأسه.

ولا يمكننا أن نتصور رأيا يخالف الرأي الذي اعتبر أن كل هذه الثورة التي وجهها الشاعر لشعبه ما هي إلا ردة فعل على الاستقبال الذي استقبل هذا الشعب تنكره، والذي وصفوه بالفتور والضعف[1].

فكان ساخطا عليهم خاصة الفئة التي كانت تتنكر لعبقريته الشعر ثم يتسع سخطه على هذا الشعب أجمعه[2].

كل هذه الصراعات والتعصبات ما هي إلا غمامة عابرة في أشعاره سرعان ما تضمحل وتزول وقوفا بأي رأي يؤيد أشعاره.

إذا كانت آلام ومشاعر الشابي متعلقة بمرضه هذا الأخير الذي يعتبر المنبع الأول والأساسي الذي تنبعث منه، بالإضافة إلى مخاوفه وعزلته سواء من الليل أو من الشعب[3].

لقد خلق خصوم الشاعر آلاما كثيرة لدى حاول الابتعاد عن شعبه وهؤلاء الخصوم، محاولا الهرب من الآلام التي يعيشها.

1- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص 155.

2- م ن، ص 155.

3- م ن، ص 155- 156.

أ- **العزلة والانطواء:**

لقد هدأت العاصفة الهوجاء التي كانت في نفس الشاعر وتاب بعدها إلى شيء من الرضا والاطمئنان، إلى نوع جديد من الحياة حيث اعتزم أن يحيا بعيدا عن قومه وعن بلاده.

اعتزل الشابي شعبه إلى الغاب أو إلى الطبيعة وبالرغم من ذلك فقد أطل عليه عذابه ووحشته وهمومه وعاد إليه بؤسه وشقاؤه.[1]

فتناول الشابي الناي وعزف عليه أشعاره " الأشواق التائهة"

يا صميم الحياة إني وحيد مدلج تائه فإني شروقك؟

يا صميم الحياة قد وجم الناي وغام الغطا فأين بروقك؟

كنت في فجرك الموشح بالأحلام عطرا يرف قرى ورودك

وانقضي الفجر فانحدرت من الأفـــ ق ترابا إلى صميم الوادي[2]

فهذه الأبيات جعلها متعلقة بنفسه أي بمثابة مرثية (أبيات خاصة برثائه بعد موته) خاصة به وهذا بقطعه لجميع آماله التي تحطمت فلم يبق له سوى الإستعداد للحياة الأبدية بعدما أصبح لا يخاف من دنو أجله.

1- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر ص 156.

2- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص 114.

II. الكتابة بالذات لدى الشابي:

" إن الشاعر يرفض أن يمتثل لقيم المجموعة التي تشدد إبادته وذلك بأن ترميه على درب المناصب والمنافع"[1]

" إنك لو أردت منصب أبيك فإن لك من أصدقاء أبيك وشهرته الطائرة وخدماته الطاهرة وعارفك وصيتك ما يحقق لك هذه الأمنية في لمح البصر" لكن للمجموعة مكائدها وللشاعر مكره، إنه يظل من علياءه ينظر نظرة الشفقة إلى النفوس التي تشرئب لمثل هذا المنصب وتتحرق له، ويراها قلوب مسكينة، ويحاول بدوره أن يتجاوزه شطره العادي ويرمي به في العتمة... لذلك يظل يؤكد لنفسه ما لا تقدر المجموعة على تمثله" [2]

" أنا شاعر وللشاعر مذاهب في الحياة وتخالف قليلا، و كثير مذاهب الناس فيها" [3]

وهنا نجد أن الشابي قد اعتبر مذهبه في الحياة هو غير مذاهب الآخرين أي قد يختلف في مساره قليلا عنهم أو بالكثير.

" أنا شاعر والشاعر عبد نفسه وعبد ما توحي إليه الحياة"[4]

وهنا نجده قد اعتبر الشاعر عبدا لنفسه لا لغيره، فهو يسمع كل ما تملي عليه نفسه فنجده يترجمها بأعمال وأقوال في حياته.

1- محمد لطفي اليوسفي الشابي منسقا الكتابة بالذات لجراحاته ص 22.

2- م ن ص 22-23.

3- الشابي : مذكرات الدار التونسية للنشر، الطبعة الرابعة، تونس 1985 ص 64.

4- م ن. ص 65.

" أنا الشاعر والشاعر يجب أن يكون حرا كالطائر في الغاب"[1]

أي أن الشاعر يجل أن يكون حرا بكل الكتابات التي يكتبها، أي لا توجد أمامه معوقات أو قوانين تقيده بها.

" إذ نجد الشابي في المقاطع السابقة صاحب رؤية وموقف إزاء مجتمعه وقد قدم رحيقه، فأعرض الناس وأشاحوا عن كأسه، وصبوا عليه جام غضبهم، وكان مصدرا لسخريتهم واستخفافهم به، ثم ينتقل إلى تصوير الشاعر الذي هو الشابي نفسه، على أنه اتسم فضلا من الشاعرية بالفلسفة فهو إذن- شاعر فيلسوف- أي أنه ينظر إلى الأشياء بتمعن وتروي ونقد"[2]

III. التكرار و عمق التجربة الشعرية:

" تمثل ظاهرة التكرار حضورا قويا في الشعر الحديث على أن الشعر القديم منذ العصر الجاهلي لم يخل من تلك الظاهرة سواء تعلق الأمر بتكرار لفظة معينة أو شطر من بيت أو بيت بعينه، يتكرر داخل القصيدة عدة مرات" [3]

للتكرار لمسة خاصة في تأثيره على مدى عمق التجربة الشعرية، وصدق الإحساس، إذ هذا الأخير يكمن في مدى تأثيره على القصيدة من السلب أو الإيجاب وخير مثال على ذلك قصيدته " النبي المجهول" التي تتراءى لنا من خلالها ظاهرة التكرار بشكل واضح،

1- مذكرات الشابي الدار التونسية للنشر، الطبعة الرابعة، تونس 1985 ص 65.

2- بوجمعة بوبعيو، النص الشعري بين التأصيل والتحليل دراسة في الشعر العربي الحديث المعاصر، الطبعة الأولى 1998، منشورات جامعة قازيون شين منغازي، ص 128.

3- م ن. ص 123.

ففيها يقول:

ليتني كنت كالسيول، إذا سالت *** تهد القبور رمشا برمش

ليتني كنت كالرياح، فأطوي *** كل ما يخنق الزهر بنحسي

ليتني كنت كالشتاء، أغشى *** كل ما أذبل الخريف بقرس[1]

إذ نجد لفظة " ليتني كنت" التي تكررت ثلاث مرات متتالية فنحن نعلم أن ليت تفيد معنى التمني وطلب ما لا طمع فيه أو ما فيه عسر فكل هذا يترجم لدى الشاعر في رغبة وتمنيه في إيقاظ شعبه من الخمول والسباق الذي سيؤدي به إلى الهلاك المحتم*.

الشابي هنا يخوض غمار تجربة شعرية لها علاقة وطيدة بشعبه الذي يعيش معه وتمثل معايشته حقيقة لمأساته التي يشترك في تجرع سمومها مع هذا الشعب*.

" ليتني كنت حطابا، ليتني كنت كالسيول، ليتني كنت كالرياح، ليتني لي قوة العواصف. كل هذه التراكيب المتكررة تدل على درجة الانفعال الذي دلت عليه أبيات القصيدة، فهو يتمنى أن يمتلك تلك القوة التي تمتلكها الطبيعة" [2].

ثم يغير أسلوب التخاطب في الثاني، فبعد التمني وإبداء معاني الحزن على ما يعانيه الشعب إذ نجد للشابي يوجه خطابا مباشرا يحاول أن يحدد موضع الداء لاستخراج الدواء.[3]

1- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص 103.

2- بوجمعة بوبعيو، النص الشعري بين التأصيل والتحليل دراسة في الشعر العربي الحديث المعاصر ، ص 124.

3- م ن. ص 125.

وكذلك نجد ظاهرة التكرار في البيت 1 إلى الأبيات التالية:

ثم قدمتها إليك، فأهرقت رحيقي ودمت يا شعب كأسي
فتألمت...ثم أسكت آلامي وكففت من شعوري وحسي

ثم نضدت من أزاهير قلبي *** باقة لم يمسها أي إنس

ثم قدمتها إليك فمزقت *** ورودي ودستها أي دوس

ثم ألبستني من الحزن ثوبا *** وبشوك الصخور توجت رأسي

وبسبب آماله التي كان يربطها بشعبه فكان يتوقع ويحس بها، سيحدث وهذا كونه فنانا ومتميزا ومبدعا دون غيره فوضع الاقتراحات مع الحلول إذ وصفه غيره من الشعراء بأنه يتميز بظاهرة النبوءة هذه الأخيرة التي " تعد في الشعر بعامة من الظواهر التي لازمته منذ القدم ولو بدرجات متفاوتة بحكم أن الشعر يستمد مصدر إلهامه ونظمه من الخيال البشري ومن الرؤى الإنسانية التي تمثل تمييزا عن الناس العاديين ورؤاهم ومن ثم فإن الشاعر قد يرى ما لم يراه غيره، وقد يتنبأ بما لم يدري بخلد غيره، وقد تصدق تلك النبوة التي هي رؤية إنسانية للحياة أو للوجود ذات أبعاد حدسية وخيالية أعمق وأنضج"[1]

كما نجد " ظاهرة النبؤة التي كان لها التأثير الكبير لدى شعراء التيار الرومانسي سواء منهم الغرب أو العرب" [2] وقد أخدنا على سبيل المثال الشاعر الرومانسي أبا القاسم الشابي الذي نجده قد أدرج ظاهرة النبؤة في شعره وهذا خاصة في أشعاره المتعلقة بمجتمعه.

1- بوجمعة بوبعيو، النص الشعري بين التأصيل والتحليل دراسة في الشعر العربي الحديث المعاصر، ص121.

2- م ن. ص 121.

" إذا تكمن نبوءة الشاعر التي بلغها عن جراء تعامله مع حقيقة الوجود في حين لم يرق غيره إلى تلك المرتبة ومن ثم فهو مصاب بمس في نظر ذلك الغير" [1]

هكذا قال شاعر، فيلســـوف ** عاش في شعبه الغي في نظر

جهل الناس روحه، وأغانيها ** فساموا شعوره سوم بخـــــس

فهو في مذهب الحياة نسي ** وهو في شعبه مصاب بمس[2]

" وهكذا يتراءى لنا درجة الإنفعال إذ تأخذ منحى تنازليا بدءا من قوله هكذا- قال ثم سار إلى الغاب يحيا حياة شعر وقدس، إذ كان الشاعر بحمل رسالة إنسانية خالدة إلى شعبه، وهذا من أجل تحقيق أمنياته التي كانت تتراءى لدى البعض على أنها نبوءات"[3]

ومن خلال حديثنا عن ألم المجتمع وتأثير كل عنصر مما سبق في نفس الشاعر، نجد أن هذا الأخير يعيش حالة ضياع بله غربة على اختلاف أنواعها حيث يدلي الشاعر بذلك الإحساس فيقول:

" أشعر أني غريب في هذا الوجود وأني ما ازداد يوم في هذا العالم إلا وازداد غربة بين أبناء الحياة"[4]

1- بوجمعة بوبعيو، النص الشعري بين التأصيل والتحليل دراسة في الشعر العربي الحديث المعاصر، ص 128.

2- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص104- 105.

3- بوجمعة بوبعيو، النص الشعري بين التأصيل والتحليل دراسة في الشعر العربي الحديث المعاصر، ص128.

4- محفوظ كحوال، أبي القاسم الشابي مع روائع شعره الحب والحزن والطبيعة والسياسة ، ص4.

فهو هنا يرى نفسه غريب بين أبناء مجتمعه إذ أنه يحس أن لا أحد يمكن أن يتواصل معه بإعتبارهم كلهم لا يفهمون لغته.

ثم يواصل فيقول:" الآن أدركت أنني غريب بين أبناء بلادي وليس شعري هل يأتي ذلك اليوم الذي تعانق فيه أحلامي قلوب البشر، فترتل أغاني أرواح الشباب المستيقظ، وتدرك حنين قلبي، وأشواقه أدمغة مفكرة سيخلقها المستقبل البعيد[1]

" فشاعرنا – المرهف الحس– يتألم أشد الألم من الوضعية المزرية والمنحطة التي آل إليها هو وفنه الرفيع فلا سامع، ولا قارئ لأشعاره وأفكاره فكيف لا يتضجر ولا يسخط، ولا يغترب، وشعبه قد فضل أن يعيش كالقطعان في المروج لا يهمهم إلا الأكل والشرب"[2]

"إن شعور شاعر بالغربة ناجمة عن عدم إيجاد النفس التي يسكن إليها ويبثها آلامه وأحزانه"[3].

فنجده سند أشواقه التائهة:

يا صميم الحياة أين أغانيك؟ *** فنحت النجوم بصفى مشوقك

كنت في فجرك الموشح بالأحلام *** عطرا يرف فوق ورودك

حالما، ينهل الضياء ويصغي *** لك، في نشوة يوحي نشيدك[4]

1- الشابي مذكرات ص33.

2- محفوظ كحوال، أبي القاسم الشابي مع روائع شعره الحب والحزن والطبيعة والسياسة، ص51.

3- م ن. ص 51.

4- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص 114.

" هكذا كان يتصور الشابي حياته الأولى قبل أن يسدل الظلام ستاره ويطفي نور فجره وإن ذل هذا على شيء فإنه يدل على إحساسه الفظيع بعدم التكيف مع مجتمعه وعدم قبوله لواقعه، وذلك أن الظروف السياسية والإجتماعية التي كانت تمر بها البلاد أثر كبير في تعميق صدمته وتألمه فأحس وتألم من تناسي الناس لأدبه وإهمالهم لعبقريته وفنه في مجتمع فهو يتحدث إلى قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحدا يفهم من لغة نفسه" [1]

" فالشاعر يعاني غربة فكرية ذات تصدع مرارتها في بيئة لم تعرف له العبقرية ولم تبوؤه مكانته اللائقة به ولازمه شعور عميق بالضياع بين أناس قد احتلوا مكانه في الأدب يجب أن يحتله الأحياء الذين يعرفون كيف ينقحون في الشعر روح الحياة والحب فالذين يعرفون كيف يعلمونه محبة الحق والقوة والجمال.[2]

فنجده يقول في قصيدته " الدنيا الميتة"

الشاعر الموهوب يرهق فنه *** هدرا على الأقدام والأعتاب

ويعيش في كون عقيم ميت *** قد شدته غباوة الأحقاب

والعالم التحرير ينفق عمره *** في فهم الألفاظ، ودرس كتاب[3]

1- محفوظ كحوال، أبي القاسم الشابي مع روائع شعره الحب والحزن والطبيعة والسياسة، ص4-5.

2- م ن ص 6.

3- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص 191.

فشاعرنا هنا يقول في هذا الصدد مخاطبا أولئك الحكام وذلك الشعب الذي أصبح لا يرى ولا يسمع ولا يغني كل ما يحيط به فيقول:

أيها الشعب ليتني كنت حطابا *** فأهوى على الجذوع بفأسي

أنت لا تترك الحقائق إن طافت *** حواليك دون مس وحسي

إني ذاهب إلى الغاب يا شعبي *** لأقضي الحياة وحدي بيأس

ثم أنساك ما استطعت فما أنت *** بأهل لخـــــــمرة ولكأسي [1]

فغربة الشاعر هنا غربة روحية وليست جسدية وهذا باعتباره يناشد شعبه بأن يتفطن لما حواليه من ظلم وظلام.

وقد توالت المصائب على شاعرنا الواحدة تلو الأخرى، فزادت في حدة غربته وأزمته النفسية على الرغم من صغر سنه فبعد أن توفيت حبيبته التي كانت تلهمه وتبدد الظلام وتزيل الأشواك من طريقه نجده يقول عن الوضعية التي آل إليها من جراء غياب حبيبته[2] فيقول :

ثم اختفت أواه؟ طائرة بأجنحة الموت

نحو السماء وها أنا الأرض تمثال السجون[3]

فغربة شاعرنا هنا ناجمة عن عدم إيجاد النفس التي يسكن إليها ويبثها آلامه وأحزانه وهي منا نرى روحية معنوية وليست غربة مادية ناجمة عن إعتزال جسماني وحياة في بلاد نائية.

1- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص 103.

2- محفوظ كحوال، أبي القاسم الشابي مع روائع شعره الحب والحزن والطبيعة والسياسة، ص 9.

3- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص 103.

ورغم كل هذه المعاناة نجد المزيد من المصاعب تتوالى عليه فبعد أن فقد حبيبته فها هو هنا يتعرض لمعاناة أشد ضراوة وقداحة من الأولى إذ فقط أعز شيء في الوجود نعم فقد الذي أحبها حبا عميقا إذ هو الوحيد الذي كان يهديه إلى سبيل الرشاد والحق، فمصيبته هذه جعلته ينظر إلى الحياة بكل تشاؤم[1] فلنستمع إليه ماذا يقول في قصيدته السامة:

سئمت الحياة أو ما فيها وما إن تجاوزت فجر الشباب

سئمت الليالي وأوجاعها وما شعشعت من رحيق الضباب[2]

إذ نجد من الصواب عندما تقول إن عوامل غربة شاعرنا السابقة الذكر قد أثقلت كاهله الضعيف البنية الصغيرة السن، إذ صيرته كالشمعة المضيئة التي تعصف بها الرياح العاتية الهوجاء من كل جهة حتى أصيب أخيرا بمرض عضال ألا وهو" انتفاخ القلب" هذا المرض الخطير زاد في توسع دائرة الغربة عند شاعرنا إلى حد ما [3].

1- محفوظ كحوال، أبي القاسم الشابي مع روائع شعره الحب والحزن والطبيعة والسياسة، ص9.

2- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص 43.

3- محفوظ كحوال، أبي القاسم الشابي مع روائع شعره الحب والحزن والطبيعة والسياسة، ص10.

الفصل الثالث

ألـــــم الاستعمـــــــار

1- أثر الوطنية في شعر أبي القاسم الشابي

2- ظلم المستعمر وصرخة الحياة.

ألـــــم الإستعمـــــار:

لم يقف إحساس الشابي الدقيق بالألم عند نفسه، بل تعداها إلى أمته، إذ وجدها تعيش وسط كابوس الإستعمار الفرنسي، وتعاني منه ألما مريرا، وهو ألم ينبعث من قلبها وصميمها كما ينبعث ألمه من قلبه وصميمه، فقد أذلها الفرنسيون وحولوا حياتها إلى جحيم لا يطاق.

كل هذه الأوضاع جعلت الشاعر يحس بضيق في نفسه ومرارة في معيشته خاصة عندما يرى شعبه يتخبط في ظلمات وغياهب المستعمر، هذا الأخير الذي أراد طمس معالم الإنسانية المتعلقة بمجتمعه ودفنها وهذا حتى لا يتمكن من السيطرة عليه وتحويله إلى كل ما ينفعه ويذر عليه بالخير الوفير.[1]

I. أثر الوطنية في شعر أبي القاسم الشابي:

" إذا كان الشابي هان يوما وذل أمام مرضه الذي يعيث في قلبه، فإنه لم يهن، ولم يذل أبدا أمام المستعمر، بل ظل قويا متحفزا، يريد أن ينشب أظافره، بل أظافر شعبه، ومن أروع ما يصور ذلك في قصيدته إلى الشعب"[2] التي قال فيها:

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس؟ أين الطموح والأحلام؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفنان؟ أين الخيال والإلهام؟
أين يا شعب فنك الساحر الخلاب؟ أين الرسوم والأنغام؟
إن عزم الحياة يدوي حواليك؟ فأين المغامر المقدام؟
أين عزم الحياة لا شيء...إلا الموت والصمت والأسى والظلام؟[3]

1- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، الطبعة السابعة منقحة، الناشر دار المعارف 1959 كورنيش النيل، القاهرة ص 150.

2- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر ص 152.

3- محفوظ كحوال، سلسلة الشعر العربي المعاصر، أبي القاسم الشابي مع روائع شعره الحب والحزن والطبيعة والسياسة، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع ص194.

فهنا نجد الشاعر يتساءل عن وجدان الشعب الذي كان في يوم من الأيام يحس ويحلم ويطمح، كذلك يتخيل ويرسم إذ يحث شعبه على الإقدام والمثابرة والصمود بعبارات شديدة مثل: إن عزم الحياة،...المغامرة...المقدام.

كما نجد الشاعر يقول أيضا:

عمر ميت، وقطب خواء، ودم لا تثيره الآلام

أي عيش ورأي حياة؟ رب عيش أخف من الحمام[1]

وهنا وصف شعبه بجثة ميتة خاوية جافة الدم وهذا من جراء الذل والهوان المسلط عليهم.

زمن هنا فالشابي نجده كارها لشعبه الظالم المستبد والذي يتهاون في طلب حريته إذ نجده يعبر على ذلك في هذه الأبيات التي يقول فيها:

كل شيء يعاطف العالم الحي ويذكي حياته ويفيده

والذي لا يجاوب الكون بالإحساس عبء على الوجود وجوده

كل شيء يساير الزمن الماشي بعزم حتى التراب ودوده

كل شيء إلاك حي عطوف يؤنس الكون شوقه ونشيده[2]

فهنا نجد الشاعر يجعل كل من لا يواكب ولا يتجاوب مع الكون لا مكانة له فيه، وما هو إلا عبء عليه.

1- محفوظ كحوال، سلسلة الشعر العربي المعاصر، أبي القاسم الشابي مع روائع شعره الحب والحزن والطبيعة والسياسة، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع ص194

2- أحمد حسن بسج، ديوان أبي القاسم الشابي الطبعة الرابعة2005 منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ص 132.